مرتبطاً بالكمال الانساني للجنس ؛ وهذا معنى عجيب ، وأعجب منه ما ترى من أن الاسلام قد أصلح فكرة الماضي فنقلها من معنى الآباء والأجداد للناس إلى المعاني التي هي كالآباء والأجداد لانسانية الناس . والأخذ (بالأهدى) في اجتماع أمة من الأمم إنما هو بعينه ناموس الترقي والتطور.

ومن أدق الأسرار قوله : « إنا وجدنا آباءنا على أمّة » . فكلمة (أمّة) هذه لم يعرفها أحد على حقيقتها ، ولم تفسرها إلا علوم هذا الزمن ، فهي المشاعر النفسية التي يتكون منها مزاج الشعب وفيها يستقر الماضي ؛ كأن الآية قد عبّرت بآخر ما انتهى اليه علماء النفس من أن الانسان ابن أبويه وابن شعبه أيضاً . فالتعصب في الاسلام هو للعلم النافع وللمجد الصحيح وللهداية الباعثة على الكمال ؛ وتعصب الجيل لمثل هذا في ماضيه هو في اسمه تعصب ، غير أنه في معناه إنما هو العمل لتسليم مجد الأمة إلى الجيل التالي له.

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

من ذكريات لبنان

بعـــد نهار جميل

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المـازني

« والآن ما ذا ينبغي أن نأخذ معنا ؟ — حاذروا أن تنسوا شيئاً »

فقالت زوجتي : « لا تنسوا الكميرا . . فسنحتاج إليها ولا شك »

وقالت فكتورين — جارتنا — : « الأفلام . . ما فائدة الكميرا بلا أفلام ؟ »

قلت : « صدقت .. وماذا أيضاً ؟ »

فقالت زوجتي : « والصابون ! »

وقالت فكتورين : « ورق اللعب .. أليس كذلك ؟ »

فقلت . « والأطباق والملاعق والفوط والسكاكين !! . إن من يسمعنا يخيل إليه أننا ذاهبون الى بعض مجاهل الدنيا »

فقالت زوجتي : « الحق أقول لكم إني أخشى علينا . . . إن هذه الجبال لا عهد لنا بها وسنعود بالليل .. وقد كنت أفضل أن يقود السيارة رجل يعرف الطرق .. رجل من أهل البلاد »

قلت : « الحق معك .. فاني أخشى الثلج على الجبال »

فصاحت زوجتي : « ثلج ؟ ؟ هل قلت الثلج ؟ »

قلت : « نعم . . جبال من الجليد . . وسنحتاج أن نربط السيارتين معاً بحبل واحد . . فاذا سقطت إحداهما في الهاوية جرت الأخرى معها ... ألا تكفون عن التخريف ؟ »

فكفوا .. وقمنا الى مضاجعنا استعداداً للسير في بكرة الصباح

* * *

وكنا ثمانية في سيارتين : زوجتي وأولادي وأنا في سيارتنا ، وجيراننا في سيارتهم . فانطلقنا منحدرين في الطريق الى بيروت وهو طريق وعر كثير التمرج والتلوي ، ولكنه أملس كبطن الكف . غير أنه مخيف — يقوم الجبل على جانب منه ، والوادي تحته من الجانب الآخر . ولا ترى منه وأنت تقطعه إلا القليل لأن تلويه حول الجبل وانثناءه كالحبل أو كالحية يخفيانه . وكان الضباب في أول الأمر يمنعنا أن نسرع ، ولكن الشمس بددته فانكشفت الدنيا لعيوننا فنعمنا بجمال الوادي الأخضر ، وجلال الجبل الشامخ ، وقد قام الشجر النثير على سفحه بين كتل الصخور ، واختلطت فيه بهجة النور وزهرته بنضارة الخضرة . وليس أوقع في النفس من السير في طريق تشرف عليه الجبال وتغيب قنتها في السحاب فكأنها عروش للطبيعة !!!

وظللنا ننحدر وندور حول جبل بعد جبل ، ونمرق من القرى والضياع واحدة بعد واحدة ، وما هو إلا أن نلف مع الطريق حتى تختفي فجأة ، ثم إذا هي بعد لفة أخرى تبدو لنا منازلها منتثرة وبعضها فوق بعض ؛ ثم ندور مرة أخرى فتحتجب ونحن لا نكف عن الانحدار ولا نزال نهبط حتى استوى الطريق واستقام ، فعلمنا أننا دنونا من بيروت . ولم تكن هي غايتنا فملنا عن طريقها وأخذنا في طريق « عالية » ثم شعرت أن السيارة جهدت جداً حتى صارت سخونتها لا تطاق ؛ فعجبت ، وخففت ووقفت ، فسألتني زوجتي عن الخبر ، فقلت : إن السيارة سخنة

جداً ، ولا أعرف لهذا من سبب إلا أن تكون أنابيب الماء قد ثقبت ؛ فهو يسيل منها ولا يبقى فيها . وكنا لحسن الحظ فى مدخل إحدى القرى فلم نجد عناء فى الحصول على ماء صبيناه فيها ، وملأنا زجاجتين استعرناهما من بعض القوم . وبعد ذلك صرنا نضطر أن نقف من حين الى حين لنصب الماء فى السيارة ولم يكن ما حملنا منه كافياً ، فكنا كلما بلغنا قرية تأخذ منها حاجتنا ونحتفظ بما فى الزجاجتين للطريق بين القرى حتى بلغنا « الشاغور » وكان جيراننا قد سبقونا إليه

* * *

وقفت بالسيارة وراء زميلتها وفتحت بابها فشدت زوجتى ذراعى وصاحت بى : « انظر ... انظر ... »

فنظرت إلى حيث تشير ، فرأيت صبياً غريب الثياب . يلبس سروالاً — أو شروالاً كما يسمونه أحياناً فى مصر — وقد لف على خصره — إذا جاز أن يسمى هذا خصراً — حزاماً أحمر غليظاً ، ومن فوق ذلك — أو من تحته إذا شئت — صدرية من الحرير المخطط تجمع طرفيها سلسلة من الأزرار تنتهى عند العنق . وعلى رأسه لفة كبيرة . وفى كلتا يديه تفاحة عظيمة يهوى عليها بأسنانه

وقالت زوجتى : « أين الكميرا ؟ دعه يقف حتى أصوره ! »

فدنوت من الصبى وأنا أقول لنفسى : « أصيب عصفورين بحجر » أستوقفه حتى ترسمه زوجتى ، وأكل إليه حراسة السيارة . ولكن الغلام رآنى مقبلاً عليه ، فجعل يتراجع ، وعينه علىّ ، وأسنانه تعمل فى التفاحة ، ولم يكن ثم شك فى أن الصبى الأحمق يخشى أن أخطف التفاحة منه ، فهو لهذا يدبر كلما أقبلت ، وكنت أطمئنه وأؤكد له أنى لا أريد به سوءاً وأن فى وسعه أن يأكل تفاحته على مهل ، ولكن هذا كان يزيده خوفاً ، فقد أسرع فى القضم وصار فيما أرى يزدرد ولا يمضغ . ولا أدرى لماذا ألححت فى دعوته أن يقف ويتمهل فقد كان هناك غيره ولم يكن ثم ما يدعو إلى الخوف على السيارة ، ولكن الذى أدريه أنه فرغ من التفاحة ورمى وجهى بما بقى منها فأصاب أنفى

ولما أفقت ، التفت إلى زوجتى ، وقلت :

« هذه جنايتك ... وقد كان أنفك أولى ، ولكن الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون » فضحكت

وكان جيراننا قد خفوا إلى « مكان الحادثة » وعرفوا ما كان فانطلقوا يقهقهون معها . وقالت زوجتى :

« لقد استطعت أن ألقط صورتك حين وقعت التفاحة على أنفك »

قلت : « ستكون الصورة ذكرى جميلة ... أليس كذلك ؟ وهذا جزاء الأحمق الذى يتزوج ... يجىء بامرأة فيطعمها ، ويكسوها ، ويبرها ويسرها ويعانى من أجلها وفى سبيلها المتاعب والمنغصات ، وتضحك منه حين ينبغى أن تعطف عليه وتألم له »

فلم تعبأ بى ، ومضت عنى مع الجيران ، وهى تضحك

* * *

ونعمنا بيوم جميل فى الشاغور ، ولم يكن أقل ما سرنا نومنا على العشب ، والماء إلى جانبنا يخرج من بين الصخور دافقا راغيا يتحدر من صخرة إلى صخرة كالشلال . وانقضى النهار ، وآن أن نعود من حيث جئنا . وكانت السيارة قد أصلحت فى خلال ذلك ، فركبنا وانطلقنا راجعين

وقلت لزوجتى وقد بلغنا البيت « هاتى المفتاح ! »

قالت : « أى مفتاح ؟ إنه معك ... لقد كنت أنت الذى أغلقت الباب ، وأظنك وضعت المفتاح فى جيب البنطلون »

وكان مفتاحا كبيراً عتيقاً لا يعقل إلا أشعر به إذا كان فى جيبى ، ومع ذلك بحثت ، وأخرجت الجيوب ونفضتها أمامها ، وأوسعت السيارة بحثاً عسى أن يكون قد سقط منى فيها ، فلم أجد له أثراً . فقلت وقد تعبت « أسوأ ختام لخير نهار ... لا بأس ... والآن لم يبق إلا أن نجىء بخيمة نقيمها هنا ، أو أن يضيفنا الجيران وإن كان بيتهم لا يكاد يسعهم ، أو أن ندخل البيت من النافذة ... ولم لا ؟ صحيح أنها مغلقة ... ولكن ما قيمة هذا ؟ ؟ نقلق خشبها بالفأس ، ونحطم زجاجها .... وكل ما ينقصنا ليتيسر ذلك .... سلم طوله ستة أمتار على الأقل ... وفأس ... الأمر سهل جداً كما ترين ... أم خير من ذلك أن أحملك على أسنانى وأنفخك إلى النافذة ، فانك خفيفة كغلالة الورد .... ولكنى أخشى أن تطيرى إلى بيت آخر ! »

فقرصتنى قرصا وجيعا ولم أكن أتوقع ذلك فصرخت من الألم